

تشغيل الأطفال بالمغرب الأوسط

خلال العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م):

قراءة في الأسباب والانعكاسات

Child labour in the middle Maghreb

during the Ziyani era: a reading in the causes and the impacts

البشير بوقاعدة

المدرسة العليا للأساتذة، الشيخ مبارك بن محمد الميلي الجزائري، بوزريعة، (الجزائر)

bachir.bougaada@ensb.dz

تاريخ النشر: 2024/09/30

تاريخ القبول: 2024/09/23

تاريخ الإرسال: 2024/03/19

الملخص:

يهدف هذا البحث لدراسة مسألة تاريخية تتعلق بتشغيل الأطفال بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، ويتركز الجهد بشكل رئيس على معالجة إشكاليتين، تناقش الأولى: الأسباب التي كانت وراء دفع بعض العائلات أطفالها إلى ولوج عالم الشغل ومجالات التكسب والانخراط في سوق العمل؛ وهم في مرحلة عمرية لا تسمح لهم بذلك من حيث المؤهلات النفسية والجسمية، وتسلط الضوء في شقها الثاني: على ملاحقة أبرز الانعكاسات التي يخلفها تشغيل الطفل وعاملته على مساره السوسيوتعليمي وحياته النفسية، وكذا موقف السلطة والنخب من مسألة تشغيل الأطفال تحت طائل أي ظرفية كانت.

الكلمات المفتاحية:

النفسية، الطفل، الشغل، التعليم، الفقر.

Abstract:

This research seeks to study a historical issue related to the employment of children in the Maghreb during the Zayani era. It mainly focuses on studying two problems: the first one discusses the reasons why some families pushed their children into the world of work, livelihood and entering the labor market at a period of age that does not allow them to do so, in terms of mental and physical qualifications. The second, on the other hand, studies the major implications of child labor and employment on his socio-educational pathway.

Keywords:

psychological, child, labour, education, poverty.

1. مقدمة:

يُعدّ موضوع الطفل وتنشئته الاجتماعية، أحد المواضيع الحيوية في حقل الدراسة التاريخية ذات الصلة بتاريخ المغرب الأوسط في حقبة الوسيطة، نظير الإضافة النوعية التي يقدّمها البحث في هكذا مواضيع لميدان الدراسة التاريخية؛ ذلك أنّ الغموض لا يزال يكتنف العديد من مسارات وحوادث وقضايا تاريخ الطفل في الحقبة الوسيطة. فإذا كان التأريخ للحياة الاجتماعية لشريحة العامة بشكل عام لم يحظ بالعناية البحثية الكافية من لدن أهل الاختصاص، فما بالنا إذا تعلّق الأمر بالتأريخ لأطفال هذه الشريحة؟ سيّما في مرحلتهم العمرية التي لا تسمح لهم بالإسهام الملحوظ في مظاهر الحياة بالمغرب آنذاك، ولا بوضع لمساتهم الفاعلة في نسيج حوادثه بحكم سنّهم، ولا ترك بصماتهم في مساحة الحياة بكل مناحيها. ولعلّ الأمر يزداد تعقيدا حين يختصّ بالنظر بمسألة عمالة الأطفال وانعكاسات ذلك على حياة الطفل في شتى مناحيها. فكما نعلم أنّ تشغيل الطفل بات ظاهرة من الظواهر التي غزت مجتمعات العصر الحالي ومشكلة من المشكلات التي تؤرق القائمين عليها، لكن في مغرب العصر الوسيط رغم وجود مظاهر عمالة الأطفال إلا أنّ الأمر لم يرق إلى درجة استغلال بشع للطفل في أنشطة اقتصادية وأعمال شاقة لا تناسب قدراته الجسمية ومؤهلاته العقلية والنفسية، ولا لتعدّد معضلة من المعضلات التي عانى منها المجتمع بشكل كبير.

على محك هذه الرؤية، نتوخى تسليط الضوء على زاوية من زوايا حياة طفل المغرب أوسطي في العصر الزياني، والمتعلقة بالسلوك الاجتماعي الذي أقدمت عليه بعض العائلات في مساعيها لسدّ متطلبات الأسرة الاجتماعية والاقتصادية وتخطّي أزمات الحاجة التي ألمّت بها؛ والمتمثّل في اللجوء الاضطراري إلى تشغيل الطفل والزجّ به في عالم اقتصادي لا يتناسب ومرحلته العمرية، ولا قدراته العضلية والنفسية، وذلك بهدف كشف النقاب عن حيثيات قضية من قضايا المجتمع الزياني ومسألة من مسائله، من خلال الوقوف على أهمّ الأسباب الكامنة وراء لجوء أرباب أسر المغرب أوسطية إلى السماح بعمالة الأطفال والدفع بهم إلى عالم الشغل وهم في ذلك السنّ، والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية التي أسهمت في ذلك أو أعانت عليه. بالإضافة إلى سعيها لتشخيص طبيعة المخلفات التي يمكن أن يرمي بها تشغيل الطفل على حياته السوسيو تعليمية. وهو ما تُجلبّه بشكل

أفصح إشكالية البحث، ففيما تكمن أبرز الأسباب التي أرغمت الأسرة على الزج بطفلها في سوق الشغل؟ وما طبيعة الأنشطة التي مارسها؟ وهل كان تشغيل الطفل سلوكا شائعا في تلك الفترة أم اقتصر الأمر على واقع العوز الذي عانت منه بعض الأسر الزيرية؟ وإلى أي حدّ ساهم عامل الضرورة القاهرة في لجوء الأسر إلى سبيل تشغيل أطفالها؟ وفيما تتجلى أبرز مخلفات تشغيل الطفل على تنشئته الاجتماعية ومساره التكويني التعليمي؟ وما موقف النخب من هذا السلوك؟

وكان من الطبيعي حتى نلامس مبتغانا البحثي هذا أن نستعين بما احتفظت به لنا بعض المظان المصدرية من شذرات خبرية وروايات مقتضبة، ليس في مسعى أصحابها للتأريخ لهذه الشريحة وإنما في سياق معالجتها لقضايا اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية ذات الصلة بهذا المسعى البحثي؛ بما يدفعنا للإشارة بأن ذلك الرصيد الخبري ليس بكافٍ للإحاطة المثلى بحيثيات سلوك تشغيل الأطفال بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط، ومعالجته من كل الجوانب، وإخراج البحث في أحسن قالب، لكن ذلك لا يمنع من المحاولة والاسترشاد بما هو متاح من مادة خبرية، وبمناهج علمية تُعين على حسن استثمار ما بين أيدينا من نصوص، وبناء مقاربات تاريخية على ضوئه، تكون كفيلة بإخراج البحث في ثوب علمي بهي يتناغم وإشكالية البحث الرئيسة وينسجم وأركانه، من قبيل: منهج الاستقراء، والوصف، والتحليل.

2. أسباب تشغيل الأطفال

2. 1 غياب المعيل:

انطلاقا من كون الأسرة تعد عاملا مهما في التنشئة الاجتماعية للطفل وتشكل الداعم الرئيس له، والإطار الأساس لحياته لاسيما الأب (الولي)، فإنّ ما تعانيه من أزمات اجتماعية وما يطالها من ضرر وما يصيبها من خصائص، له عميق الأثر على حياة الطفل ومساراتها، ومن ذلك غياب الأب عن أسرته تحت أي طائل، خصوصا إذا استنزف غيابه عن محيطه الأسري مسافة زمنية عريضة من حياته ودون أن يُخلف من يتولى سدّ متطلبات الأسرة ورعاية شؤونها ممن تُشرع لهم الوصاية، ولم يترك لأسرته من المال ما يعين على قضاء الحوائج الضرورية لحياة اجتماعية ولو بسيطة كمصدر دخل. ومن ثمّ كان سبيل

تشغيل الأطفال أحد المخارج التي اهتمت إليها الأسرة في المغرب الأوسط الزياني للتخفيف من ثقل الألم الذي أنجبه واقع الخصاص المالي على حياة الأسرة وبشكل أساس الطفل، وهو ما يبرزه التفصيل الموالي:

- الغياب في الرحلة العلمية:

ساهمت الرحلة على تعدد غايات من ركب سفينتها سواء لتحصيل العلم في كبرى الحواضر الإسلامية أو الحجّ أو للتجارة، وتشعب وجهاتهم سواء إلى المشرق أو المغرب والأندلس، بما تفضي إليه أحيانا من غياب معيل الأسرة عن فضائه الأسري لمسافات زمنية معتبرة، في خلق مشاكل اجتماعية واضطرابات أسرية، عمقت من جرح معاناة العائلات الفقيرة؛ ذلك أنّ غيابه سيوسّع حدود دائرة العوز حين تضطرّ للبحث عن مصدر دخل يلبي حاجاتها حتى ولو اقتضى الأمر أحيانا تشغيل الطفل. ومما نراه يقوّي من مفعول طارحتنا هذه، النازلة التي أوردها الونشريسي، ومفادها: أنّ أبا عبد الله المازري سئل فيمن غاب بالأندلس وترك زوجة وطفلة منها وطفلا من غيرها مطلقة، ولم يترك لأولاده وزوجته نفقة، فعمدت أم الطفل إلى مخاصمة كل من الزوجة والابنة برزق ابنها¹. ومما يصدق كذلك على الرؤية التي نتبناها في هذه المنحى البحثي، نازلة الصبية التي غاب والدها عنها وتركها في حجر جدتها، دون أن ينظر لمصلحة ابنته ولا عهدٍ لوصي يرعى شؤونها².

- الأطفال الأيتام:

بالإضافة إلى الأعباء النفسية التي يلقي بها اليتيم على نفسية الطفل الذي يفقد والده، قد يتضاعف حجم الأعباء على حياته النفسية إن لم يحظ برعاية اجتماعية مناسبة في غياب معيل قادر على تحمّل مشاق المسؤولية الأسرية، وتلبية حاجاتها المالية. ولا نعدم القرائن التي تكشف بجلاء حرص الأمهات الحاضنات على توفير متطلبات الأبناء الاجتماعية المتلونة، من خلال طرق باب الإعارة والمعونة من الأقارب والجيران، حتى بلغ الأمر ببعضهن لبيع أغراض البيت وحتى الأغراض الشخصية كالحلي وأدوات الزينة، فقد أورد الونشريسي نازلة تفيد بأنّ امرأة حاضنة لابنتها أقدمت على بيع أغراضها حين احتاجت³.

كما دفعت بعض الأسر بأطفالها لطرق أبواب بيوت أهل البر والإحسان خاصة العائلات الميسورة وصلحاء المجتمع ونخبته يطلبون الصدقة، فقد أورد ابن مرزوق بأن دار شيخه الولي أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب كانت زاوية للوارد وأنه لا يمسه شيئاً بداره⁴. واستعان البعض بحرفة التسول لسد حاجات أفراد أسرته التي تعاني العوز وتشتكي الفاقة يتجولون بين أهل الصلاح واليسار عساهم يظفرون بمن يتصدق عليهم ويستحاجتهم، ويقصدون الزوايا والأضرحة يلتمسون القوت ويطلبون الإعانة⁵.

كما نستشف في ضوء تراجم ابن مريم التلمساني (توفي ما بين سنتي 1025 و 1028هـ) واقع اجتماعي متأزم عانت تحت سقفه بعض عائلات المغرب أوسطية تحت طائل حياة اليتيم والعوز، ومن صورّه ما تكشف عنه ترجمته لحياة الشيخ أحمد البرنسي الفاسي الشهير بزروق (846-899هـ) الذي عاش يتيماً في كفالة جدّته؛ حيث أدخلته الجدّة الصنعة في عمر العاشرة بعدما حفظ القرآن، فتعلّم صناعة الخزف⁶. فهذه الحادثة ترسم جانبا من واقع معاناة الطفل بانخراطه في عالم الشغل في سنّ لا تسمح له على حساب الاهتمام بطلب العلم والقراءة. وتطالعنا المادة النوازلية عن صور من معاناة الطفل اليتيم من وطأة الفاقة والعوز، حيث أورد الونشريسي نازلة الرجل الذي تعين له حق في أرض مشتركة بينه وبين أيتام مهملين⁷.

أما بالنسبة لأيتام الحرب، فمعلوم أنّ الحروب إذا تتالت وقائعها وتكررت على مدار الحكم الزياني بالمغرب الأوسط، تساهم في توسّع حدود دائرة اليتيم؛ حين تحصد الأرواح بأعداد هائلة ومن ضمنهم الأزواج وأرباب الأسر الذين يخلّفون أحيانا وراءهم الأيتام والأرامل بلا معيل ولا مصدر دخل⁸. في هذا الصدد، يشير الوزان الفاسي أنّ المرينيين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات⁹، سيّما على كاهل حروب الحصار التي ضيقوا بها على مجالها، ومن أبرزها حروب أبي يعقوب يوسف المريني المتكررة على تلمسان ومنها الحصار الطويل الذي استغرق نحو تسع سنين بداية من سنة 698هـ/1299م، أين عانت تحت وطأته ساكنة تلمسان ويلات الجوع وبلاء الأزمة¹⁰.

على محكّ هذه الرؤية، يتجلى لنا مدى إسهام الحرب في توسع قاعدة الأيتام وشريحة الفئات المعوزة، وفي ظل هذا الواقع المتأزم اضطرت بعض الأسر في مسعى سد متطلباتها الاجتماعية وضمان مصدر رزق لدفع الأطفال للعمالة¹¹. ومن الشواهد التي تقوي من هذا الطرح، أنّ بعض الزوجات اضطرت تحت ثقل مسؤولية إدارة شؤون الأسرة وعجزهن عن تلبية حاجاتها المعيشية إلى طلب الطلاق بواسطة القضاء من أزواجهن الذين انقطعت أخبارهم عنهن وفقدن الأمل في عودتهم. وهو ما عبّرت عنه بعض القضايا النازلة كما أفصحت عنه التصانيف النوازلية¹². وحتى وإن كان هناك من المطلقات ومن ذوات الأيتام من تزوجن، إلا أنّ معاناة الطفل من الخصائص المالي وأزمة النفقة، ظلّت ترافق حياته، حتى وإن وجدت أمّه من يتكفل بنفقة ابنها. حيث جاد علينا معيار الونشريسي بمادة كاشفة لذلك الواقع، ومن ذلك: نازلة الرجل الذي تزوج امرأة ولها ولد ثم طلقها، ومسألة الذي غاب عن زوجته، فادعت أنّه لم يترك لها شيئاً، ورغبت في الطلاق منه، وقضية الأخت الشقيقة التي نقلت الحضانة إليها بعدما تركها أخوها¹³.

2.2 ترسبات الحرب ومخلفاتها:

أسهمت الحرب بترسباتها في إنتاج واقع عصيب تحمّلت أثقاله الساكنة الزيانية، وتخبّطت بين أمشاجه الأسر الفقيرة، حيث ضمّت مخلفات هذه الظرفية صوتها التآزمي إلى صفّ الواقع الاجتماعي العصيب الذي كانت تعانيه بعض الأسر تحت طائل الفقر والعوز، حيث تفاقم حجم الأزمة، وتنامت مخرجاتها في حياتها، وكان من بين سوء تبعات الحرب والواقع الذي خلفته:

- الإضرار بالاقتصاد لاسيّما الإنتاج المعاشي الذي تسترزق منه الأسر الزيانية ويشكّل عند بعضها مصدر دخلها الوحيد كالمزارع والحيوانات؛ حيث تُكتسح ممتلكاتها وتُنهَب حيواناتها وذخائرها، وتتعرض أراضيها للغصب والتعدي وتجارتها وصنائعها للسرقة، التعطيل والكساد، ناهيك عن هجرة أصحاب الصناعة والفلاحة أراضيهم وصنائعهم¹⁴. ولا ريب أنّ توقف الدورة الزراعية وتراجع النشاط الحرفي وتضعفه وتشريد الفلاحين وأصحاب الحرف وانقطاع سبل التجارة وتضرر جيوبها، سيرمي بالسكنة بين مخالب حياة ضنك العيش وألم الفاقة، سواء خلال فترات الحروب أو على أعتاب نهايتها والفترات التي

تليها وبالأخصّ إذا تذيّلتها عواصف المجاعات وويلات الأمراض والأوبئة. ومن الدلائل الكاشفة لهذا الواقع: أنّ تلمسان حلّت بها مجاعة شديدة خلال النصف الأول من القرن 8هـ/14م حتى لم يطق السكان تحمل ثقل هذه المجاعة، كما تعرّضت هذه المدينة إلى غلاء كبير في عهد السلطان أبي سعيد عثمان الأول (682-704هـ/1283-1304م)، تعطلّت على إثره المرافق الخيرية العامة¹⁵. ونعتقد أنّ تعطلّ هذه المرافق الخيرية قد يرغم بعض الأسر التي كانت تسترزق من مواردها، على الزجّ بأطفالها في سوق الشغل لسدّ الحاجة.

كما شهدت بلاد المغرب عامة وتلمسان على وجه الخصوص مجاعة عظيمة سنة 776هـ/1373م أتبعها غلاء فاحش في الأسعار لم تستطع العائلات الميسورة الصمود أمام أسعار السلع الأساسية الباهضة، فما بالنا بمستوى صمود العائلات ذات الدخل الضعيف ونديمة الدخل والتي لا معيل لها¹⁶.

- إضعاف القدرة الشرائية للأسرة المغربية واستنزاف طاقاتها المالية في إطار -على سبيل المثال- السياسة الجبائية التي تركب جوادها القيادة السياسية في مسعى الحفاظ على استقرار تدفق موارد دخل الخزينة العامة خاصة خلال الفترات الحساسة والاستثنائية¹⁷.

ومن البديهي أنّ هذه الظرفية بمفرزاتها وأثقالها أنتجت واقعا اجتماعيا عصيبا كان من تجلياته لجوء بعض الأسر تحت الضغط للزجّ بفلذات أكبادها في سوق الشغل وحقل العمالة قبل النضج العقلي والجسمي الكفيل بممارسة أي نشاط اقتصادي مهما كان نوعه.

3.2 الفقر والعوز المالي:

يتركز اهتمامنا في هذا المنحى على إسهام عامل الفقر والعوز المالي في دفع بعض الأسر الزيانية لتشغيل أطفالها وتحفيزهم على تعلّم الصنائع في سنّ مبكر من حياتهم وتحميلهم قسطا من المسؤولية اتجاه إعالة الأسرة، إذ بالرجوع إلى النصوص التراجمية والتصنيف المنقبي، تتجلى لنا صورة عن حجم المعاناة التي عايشتها أسر بعض النخب في مرحلة الطفولة بسبب الظروف الاجتماعية الصعبة التي عايشتها والتي أرغمتها على إشراك أطفالها في ممارسة الأشغال والأعمال التي هي من مستطاع الكبار، فابن مريم التلمساني وهو يعرض مادته التراجمية لمسار منحنيات حياتية لشريحة عريضة من النخب المغرب أوسطية، استوقفنا ما خصّه بالشيخ الأصولي البياني المنطقي أحمد بن محمد ابن زكري

التلمساني (ت899هـ) من ترجمة لحياته في عمر الطفولة ومرحلة النشأة، حيث أشار إلى أن الأخير مات أبوه وتركه صبيًا في حضانة أمّه، وفي الوقت الذي كان وضع أسرته المالي لا يسمح لوالدته المشرفة على شؤون الإدارة العائلية بأن تغطي كافة احتياجاتها، أرسلته ليتعلّم صنعة الحياكة عند معلم في تلمسان لتحصيل دراهم معدودات تقيهم شرّ المسغبة وأزمة الجوع¹⁸.

كما ساهمت المشاكل الأسرية في تفاقم واقع الأزمة التي أحاطت بكيان بعض الأسر المغربية في الفترة مدار الدرس كقضايا الطلاق والخلع، وعمقت من جرح معاناة الطفل وتوسيع حدود دائرة المسؤوليات الملقاة على كاهله في سنّ مبكرة ومن ذلك تلبية حاجات الأسرة بتأجير نفسه أو ممارسة نشاط حرفي أو صنعة. في ذات المسعى، أورد المازوني نازلة تتعلق بمسألة رفعت لأحد المفتين تتضمن قضية خلع حيث تحمّلت المرأة مسؤولية النفقة على البنت. وتحت طائل الفاقة، عمدت إلى تعليم ابنتها الصنعة كي تستعين على النفقة بالدنانير التي تجنيها¹⁹. وأضاف الونشريسي: أنّ شيخ شيوخه القاضي أبو عثمان العقباني سئل عن خالع زوجته على أن تحمّلت له هي وأمّها مؤنة ابنته منها مادامت عندها²⁰.

وكان الطلاق أيضا أحد المعضلات التي عانى الطفل بسبب مخلفاتها، حيث تطالعا النصوص النوازلية عن واقع معاناة أطفال بعض الأسر المغربية تحت طائل انفصال والديه، شأن نازلة الرجل الذي طلق امرأته وله منها ابن، فالتزمت المرأة لزوجها بحضانة ابنها لأشهر مسماة فاستأجرت الصبي بدراهم، تأخذها الأم لتستعين بها على نفقة الصبي²¹. ولا نستبعد أن يعاني الأطفال الذين اختلف أولياؤهم بشأن حضانتهم والنفقة عليهم حين تضعضعت علاقتهم الزوجية وقُطع حبلها، شأن مسألة الخلاف حول النفقة على الولد بين الأب ووليّته²².

هذا وشكّل الإنفاق على الرئائب في البعض من الأحيان، أحد أسباب الشقاق بين الزوجين والتنازع بينهما حول أمر النفقة، ومما يعين على جلاء ذلك الواقع: نازلة الذي تزوج امرأة برييين، وكان ينفق عليهما مدة، ثم راح يطالبها بتعويضه ما أنفق على ولديها²³.

تحيلنا القضايا الأسرية ومظاهر المشاكل الزوجية التي تضمنتها المصنفات الفقهية والمصادر النوازلية على بعض ألوان المسائل التي طُرحت على المحكمة الفقهية استجدادا من أصحابها بالنص الفقهي والسلطة القضائية لضبط نسيج العلاقة الزوجية، والحفاظ على مسارها، وترميم مظاهر الخلاف التي يصطدم بها رابطتهما الزوجي وتعرّك صفو التعايش الأسري وأمن الأطفال الاجتماعي والاقتصادي. ولعلّ من بين ما ينهض دليلا على ما ذكرنا، أنّ الأمر وصل ببعض الزوجات أن اشتترطن على أزواجهن النفقة على أولادهن الصغار من غيرهم لمدة معلومة، كما توضحه نازلة الرجل الذي تزوج امرأة لها ابن صغير فشرطت على زوجها أن ينفق على ابنها خمسة أعوام أو أكثر أو أقل نفقة معلومة وأجلا معلوما وبه تم عقد نكاحها²⁴.

2. 4 مساعدة الوالدين:

شارك أطفال بعض الأسر الزيانية ذويهم مجموعة أنشطة اقتصادية معاشية متنوعة سواء في مجال الصناعات والحرف والتجارة والفلاحة كالحرث والحصاد وجمع المحاصيل وتربية الحيوانات ورعيها. ولئن كان هذا النشاط الذي مارسه الطفل لا يندرج ضمن العمل المأجور وإنما دعما لجهد الأسرة في ضمان موارد الدخل ومصادر المعاش، فإنّ مما لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أنّ هذا السلوك قد يضر بمستقبل الطفل التعليمي أو حتى بصحته النفسية والجسمية؛ فالطفل ينشغل بأعباء الكبار على حساب ما تقتضيه مرحلته العمرية²⁵.

وإذا كان ما بسطناه ينسجم في غالبه مع واقع الطفل الذكر، فلا يفوتنا التنويه لما تتحمّله البنت هي الأخرى من أعباء منزلية وتضطلع به من مسؤوليات اجتماعية داخل محيطها الأسري، من حيث ما تنهض به من أداء للكثير من الأعمال المنزلية. ولئن كان هذا المجهود يندرج في إطار السلوك الشائع في المجتمع إذا لم يتجاوز حجم الأتعاب حدود المعقول والمطاق، فإنّ من ضروب القساوة التي عوملت بها البنت أن حرّمت من التعلم والدراسة، وحصرت وظيفتها في السهر على الأداء الحسن للوظائف المنزلية سواء داخل البيت أو خارجه. ويبرز حجم الضرر الاجتماعي بشكل فاحش في ذلك الذي تعانيه البنت اليتيمة التي لا معيل لها، بحرمانها من الالتحاق بمقاعد الدراسة ومجالس العلم، ومعاناتها القهر الاجتماعي والإهمال الأسري وحرمانها الدفء العائلي²⁶، سيّما حين تلزم بالأعمال

المنزلية قهرا وتعسقا، وتحتمل ما لا تطيق تحت طائل الإكراه إذا ما كانت تعيش تحت وصاية ظالمة.

3. انعكاسات العمالة على حياة الطفل:

إنّ كون انخراط الأطفال في عالم الشغل ظاهرة غابرة في عمق التاريخ وشائعة في العديد من المجتمعات قديما وحديثا وحتى في صفّ الأنبياء والرسل عليهم السلام؛ فقد عرف عنهم امتهانهم لحرف متنوعة كالرعي والتجارة والنجارة والحدادة، وما لذلك من إيجابيات في حياة الطفل الاجتماعية والمهنية، لا يعني خلوّ هذا الصنيع من تبعات سيئة قد تطل جسمه ومساره التكويني-التعليمي، ولما لا حتى حياته النفسية.

1.3 الانعكاسات على المستوى الجسمي:

من الطبيعي أنّ الحياة الاجتماعية للطفل بشكل سليم تقتضي تفاعله تفاعلا إيجابيا مع محيطه الأسري والمجتمعي. ولا يتأتى ذلك إنّ لم تتجح الأسرة والمحيط في بسط الأرضية المثلى والمناخ الأنسب لذلك؛ من خلال إكسابه السلوك القويم وتنشئته وفق نظام قيمى يتماشى والشريعة الإسلامية ويستجيب لقوانينها ونظامها، وتسخير القنوات الكفيلة لتكوينه وتعليمه وتوفير سبلها بما يضمن له ذلك، وشدّ عضد ذلك بحسّ رقابي رفيع المستوى يكون العين التي تحرس مسار نموّه بكل جوانبه من الضلال والزيغ ومن الغفلة والتمردّ ومن الفشل والانكسار، وتأخذ بيده للسير السلس في مضمار التنشئة السوسيو تعليمية الطبيعية، في ضوء مصباح التوجيه والنصيحة والموعظة والدعم المعنوي والمادي. غير أنّ الظروف الصعبة التي أحاطت ببعض العائلات الزيرية أحدثت خلا واضطرابا في الأداء الوظيفي للمسؤولية الوالدية على النسق المنشود، ذلك أنّها اضطرتها إلى السماح لابنها بالانخراط في سوق العمل، وما كان الطفل لينجو من سوء تبعات التشغيل في تلك المرحلة العمرية ولو بشكل نسبي. ولعلّ من أبرزها، ما طال جسمه وأمنه الصحي: الإصابة ببعض الأمراض الناجمة عن الإرهاق الشديد والتعب البالغ، أو العاهات التي لحقت من جرائه، وتأخر النمو الجسمي ونحوها.

بالنسبة لتأخر النمو الجسمي للطفل، لا يخفى علينا أنّ لعامل الإرهاق البدني والنفسي أحيانا، تأثير سلبي على مسار النمو؛ فهو يعطلّ النمو الطبيعي ويعيق مساره، فقد تجد طفلا قصير القامة، وآخر محدودب الظهر، وغيره أصيب بإعاقة مؤقتة أو مستديمة.

أمّا من بين من يطلّ صحة الطفل من ضرر، فلا يمكن أن يغيب عنا، أن الأطفال الذين يُستأجرون -مثلا- في مواسم الفلاحة كالحصاد والدرس وجمع الثمار في فصل الحرّ أو جني الزيتون والحرث في فصل الشتاء البارد، يمكن أن يلحقوا ضررا بأجسادهم نتيجة العمل لساعات طويلة تحت أشعة الشمس في شدة الحر كالصداع والشقيقة والصرع، وآلام الرأس والصدر والمفاصل، ونحوها من الأمراض التي تصيبه لسبب الحر أو البرد²⁷.

يمكن أن نضيف إلى صفّ تأثيرات التشغيل السلبية على جسم الطفل، أنّ الأخير إذا كان يمارس نشاطا بجهد عضلي كبير كأعمال الحفر والحمل الثقيل للبضائع فوق الطاقة ونقلها المُرهِق لمسافات طويلة، فإنّ ذلك إضافة إلى تبعات الإرهاق التي يلقيها على جسمه، يتطلّب منه إتباع نظام غذائي متوازن، فإذا كان يعيش في وسط أسري يعاني الفقر والخصاص لا يسمح بتلبية حاجته الغذائية بحيث يقتصر على سدّ الجوع، فإنّ لذلك انعكاس سلبي على صحّته، فربما يساهم ذلك في تدمير جسده تدريجيا؛ لو أصابته بالأمراض الناجمة عن سوء التغذية، أو عانى الآلام في عظامه ومفاصله من شدة التعب.

ودون إنكار حجم الفائدة التي يجنيها الطفل الذي يتعلّم الحرفة مع أبيه ويتوارثها عنه، ويقدم لوالده يد العون في أداء وظيفته وممارسة أنشطته أو يتعلّم الصنائع والحرف عن رغبة وإرادة؛ بما يُنمي مهاراته وقدراته فقد كان أولاد ابن حسين يتحرفون بالنجارة وخرط الخشب وشبهه بورشة لهم كانت بالجانب الغربي للجامع الأعظم بتلمسان²⁸، فإنّنا كذلك لا يمكن أن نلغي بشكل مطلق حجم الضرر الذي يمكن أن يلحقه الإرهاق في مسار العمل بنموه العقلي والجسدي²⁹ ولو بنسبة محدودة؛ فالنشاط الزائد يحرمه من عيش طفولته بشكل طبيعي ويحول دون استمتاعه بكافة خصائص طفولته وحقوقه الأساسية في هذه الفترة سيّما الترفيهية أو أخذ حظّه الكافي من الراحة واللعب³⁰.

2.3 الانعكاسات على المستوى التعليمي:

الأسرة هي الدعامة الأولى لضبط السلوك والمدرسة التي يتلقى فيها دروس الحياة الكفيلة ببناء شخصيته الاجتماعية والأخلاقية والجسمية والنفسية، وحجر الزاوية في عملية التنشئة الاجتماعية والرعاية الكافية بكل معانيها؛ فهي الوعاء الذي يشرب منه التربية والقيم الخلقية الحسنة، ويغترف منه التقاليد والأعراف الاجتماعية السائدة، بما يطبع سلوكه ويعدّه لخوض غمار الحياة بشخصية متوازنة وضمير قيمى حي ووعي اجتماعي وثقافي كاف، وهي أولى الوسائط للتبادل والتفاعل بينه وبين العالم الخارجي. كما ينبغي أن يحرص الوالدان على توفير السبل الكفيلة بالتحاق الطفل بمجالس العلم لتمنية قدراته وتطوير مواهبه، مع مراعاة ما يتناغم ومرحلته العمرية، كحفظ القرآن والمتون والشعر ونحوها، وحين يبلغ السن المناسب يلتحق بمدارس ومجالس تعليم الحساب وعلوم الطب والفلسفة وما تعلق بأمور الرياضة كالرماية والسباحة؛ لأنّ ذهنه يقوى على ذلك في هذه السن³¹. وإذا كانت أغلب الاسر في المجال والحقة المدروسة لم تغفل هذا الواجب، إلا أنّ البعض وتحت وقع ظروف القاهرة لم تضطلع بهذا الدور على الوجه الأمثل، فقد كان معظم الآباء في الوسط العامي -عن حسن نية وغير قصد- يحدون من طموحات أبنائهم العلمية بسبب وضعهم المادي المنحط وعجزهم عن تحمّل نفقات أبنائهم الدراسية، بل وكما أشار إليه أحد الباحثين كانوا يُجبرونهم على الحرف للتكسب، وسد النفقات³². ونحسب أنّ انشغال الطفل بأمور العمل وسدّ متطلبات أسرته الفقيرة التي لا معيل لها غيره واقتحامه عالم الكبار أو ميدان الشغل والعمالة على حساب دراسته وتحصيل العلم والمعارف، سينعكس سلبا على حياته التعليمية والتربوية. وقد أشار غير واحد إلى أنّ إرغام الطفل على تعلّم الصنائع على حساب العلم من شأنه أن يشعره بالكبت والظلم، وأنّه مسلوب الاستقلالية الذاتية؛ أي أنّ أسرته هي من تخطط مستقبله بدلا عنه³³.

كما أنّ من بين أبرز التأثيرات الجانبية التي تنعكس على مسار الطفل التعليمي بسبب ولوجه ميدان الشغل في هذه المرحلة العمرية المبكرة: تأخره عن الالتحاق بمقاعد الدراسة ومجالس العلم ومجالسة العلماء ومخالطتهم كحفظ القرآن والأحاديث النبوية والمتون، لبناء قاعدة علمية صلبة. يقول ابن خلدون: "اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة

ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده³⁴. فالقرآن أصل التعليم، وأساس تفجير الملكات، وخصوصا إذا كان في الصغر لكونه أشد رسوخا³⁵.

وإذا كان عامل توقيت الدراسة يلعب دورا محوريا في عملية التعلم والحفظ والاستيعاب وتنمية الملكة، فإنّ عمالة الطفل من الطبيعي أن تؤثر سلبا على نظام ذلك التوقيت ومساره؛ فمن المعلوم أنّ من أفضل أوقات الحفظ -على سبيل المثال- بعد صلاة الفجر³⁶، ومن ثمّ فإذا استغرق الطفل وقتا في الدراسة بعد الصلاة ثمّ خرج إلى العمل بعدها ليعود في المساء مرهقا، نعتقد أنّه بالإضافة إلى مخلفات التعب والإرهاق الذي ينسحب على جسمه وأمنه الصحي، لا يعقل أن يرقى مردود عمليته التعليمية ومسار الحفظ لديه إلى المستوى المنشود، وإنّما يظل مردود مجهوده في سبيل العلم أو الحفظ ضئيلا محدودا، هذا في حال رغب الطفل في الجمع بين النشاطين التعليمي والعملية واجتهد في ذلك، أمّا إن كان تحت الضغط والإكراه فإنّ المردود قد ينعدم بتاتا ولا يؤت سبيل التعليم أكله أصلا، أمّا إذا رفض الدراسة أصلا لسبب العمل أو منع عنها من طرف حاضنه أو حاضنته لذات السبب فحجم الضرر يكون أعمق وأثقل. ثمّ إنّ ما ذكرنا يصدق فقط في حق عمليات الحفظ كحفظ القرآن؛ لأنّ الأصل في سبيل تعليم الطفل أن يتفرّغ الأخير للدراسة والتعلّم، وهو ما يقتضي تقسيم وقت يومه بانتظام لتلقي الدروس واستثماره في مجالس العلم ومقاعده كما هو معمول به بمدارس المغرب الأوسط في الفترة مدار الدرس ونحوها من أماكن التلقي.

وحين لا يغيب عنا بأنّ الإجهاد في التعليم في حدّ ذاته يمكن أن يضرّ بملكة المتعلم خاصة أصاغر الولد، فما بالنا إنّ كلّ الطفل بأنشطة اضافية على حساب درسه، وهو ما نبّه إليه ابن خلدون³⁷. بل ويؤثر حتى على صحة الطفل وسلامة ذهنه ومسار نموّه، فيكون تأثير إرهاق العمالة عليه أعظم وأكثى³⁸.

وعليه وتحت طائل ظرفيات اجتماعية عصبية وخصائص مالي قاسٍ عانت منه بعض الأسر الزبانية، اقتحم بعض الاطفال مجال الشغل في سن مبكرة؛ في مرحلة تقتضي الانشغال بالأمور العلمية والأشغال البسيطة التي تتناغم ومرحلته العمرية، حيث كان يبذل جهدا أكثر من قدرته التحمّلية وأقوى من طاقته، ويصرف جهدا معتبرا من مسار طفولته الزمني في أنشطة سابقة لأوانها اعتبارا بمستوى سنّه. وهو ما لمسناه في وضعية أحمد بن

محمد بن زكري الذي حرصت أمّه بعد فقد زوجها وتحت ضغط الفاقة على أن يتعلّم صنعة الحياكة نظير أجره زهيدة وهي نصف دينار يعين بها أمّه لسدّ معاش الأسرة³⁹. وما يلفت الانتباه بشكل أساس في هذه الحادثة، أنّ والدته بن زكري لم تستجب لنصيحة الشيخ ابن زاغو الذي أنس من الطفل بن زكري صوتا جميلا في قراءة القرآن وعقلا نبيها في التدبّر والتفكير والإبداع وحثّه على الالتحاق الفوري بمجالس العلم واستثمار موهبته في طلبه إلا بعد أن قرّر الشيخ بن زاغو أن يدفع لها قيمة الأجرة الشهرية التي يتقاضاها وليدها. بما يعني أنّ هذه الوالدة لما أحاطت بها الفاقة وعصفت باستقرارها المعيشي وأمنها الاجتماعي الحاجة، رأت أن تستخدم وليدها كوسيلة إنتاج وأن لا تسمح بالتحاقه بمقاعد الدرس إذا انقطع عنها ذلك المصدر المالي، ويحتمل أنّه لو لم يدفع لها الشيخ تلك الأجرة أن يظل ابنها في تلك الصنعة ويتأخر عن نفع عظيم في مجال العلم والمعرفة، لكن حين سخر الله لها ولابنها هذا الشيخ بنصيحته ودعمه المالي، فقد بلغ ابن زكري مبلغا عظيما في مجال العلوم النقلية والعقلية.

3.3 الانعكاسات على نفسية الطفل:

من الأمور الثابتة والمعلومة بالضرورة في حقل رعاية الطفل ومساره التنشؤي، أنّ العناية به في هذه المرحلة العمرية تتطلب حرصا لامعا وجهدا معتبرا نظير حساسية المرحلة وصعوبة مفرزاتها وخطورة مضاعفات أي تفريط وتهاون أو تنشئة على غير النسق المنشود. كما أنّه لا مراء أنّ ولوج الطفل مجال الشغل في مرحلة عمرية لا تتناغم وذلك النشاط وحجم الطاقة والجهد الذي يتطلبه، له في الغالب الأعم من التبعات على حياته الاجتماعية ما لا يحمد عقباه، ذلك أنّه قد يؤثر سلبا على مسار حياته النفسية. فإذا كان الطفل يمارس نشاطا لا ينسجم وقوته العضلية ولم يصمد أمام مستويات الإرهاق الذي يُلقى به ذلك الجهد العضلي على جسمه وقدرته التحمّلية سيصيبه الضرر النفسي البالغ؛ حين يغمره التعب البالغ، ويضجر من تتاسل أتعاب الشغل على كاهله، وتتهار قواه النفسية وترهقه الأفكار الثقيلة ويغمره الملل، وكلّها انعكاسات سلبية على النمو السوي لبنية الطفل النفسية⁴⁰.

وإذا كنا نعلم بأنّ حياة الفقر والعوز التي تتخبّط تحت سقّها بعض الأسر تأثيرات غير محدودة على نفسية الطفل، فإنّ تلك التأثيرات إذا انضافت لصفّها انعكاسات التعب والإرهاق الذي يتكبّده الطفل الذي يمارس نشاطا لا ينسجم ومرحلته العمرية، تضاعف مستوى التأثير السلبي على حياته النفسية، سيّما إذا صادف ذلك الواقع حالة طفل يتيم؛ ذلك أنّه يمكن أن تتراكم على نفسيته أثقال التأثيرات الناجمة عن معاناة حياة العوز وحجم الإرهاق وواقع اليتيم.

دعنا نقول أنّ تحمّل الطفل لهموم عائلته وانشغاله الملحوظ بأمور الأسرة وسدّ حاجاتها وتلبية متطلباتها يبعث في جسمه التعب وفي نفسه الإرهاق ويسبّب له الإحساس باهتزاز الشخصية⁴¹، فالتفكير كما هو معلوم يهدّد البنيان النفسي للراشد فما بالنا بالطفل؛ إذ كثرة التفكير في أمر التحصيل المالي من طفل بمؤهلات عقلية محدودة ومكونات جسمية ضعيفة وتركيبية نفسية حساسة وبنوع من السخط والملل والضجر إذا ما انضاف له التعب الجسدي والإرهاق العضلي، يُحدث خلا في أمن الطفل النفسي واضطرابا في أمزجته الوجدانية وتماسكه العاطفي، وقد يشعر بالإحباط والملل والقلق، أو يركن للعزلة ويحسّ بالنقص والقهر الاجتماعي.

4. موقف النخبة من ظاهرة عمالة الأطفال:

نشير في هذا السياق، بأنّ لجوء أرباب الأسر المغربية في الحقبة الوسيطة إلى تشغيل أطفالهم كان أمرا اضطراريا تحت طائل ظرفيات وأسباب متشعبة، وأنّ أرباب هذه الأسر بشكل عام وأفراد المجتمع الزياني بشكل خاص كانوا يقدرّون العلم ويرون العزّ فيه وفي أهله ويحرصون على تعليم أبنائهم ويفضّلون أن يحيوا بالعلم على الحياة بغيره⁴². وما كانت النخب العلمية والسُّلطة التي تعاقبت على حكم مجال المغرب الأوسط في العصر الوسيط لتستسيغ ذلك الواقع المتأزم وترضى بذلك السلوك، وإنّما احتفظت لنا المادة المصدّرية بمواقف عبّرت بواسطتها النخب العلمية عن رفضها لسلوك التشغيل، لكونها كانت ترى فيه العائق لمسار عملية تعليم الطفل وتكوينه والمعرقل لمسيرته في ذلك. ومن أبرز الصور الكاشفة لرفضها لذلك الصنيع ما عبّرت عنه على كاهل سبيل النصيح والتوجيه، وهو ما لفت انتباهنا إليه ابن مريم التلمساني حين جلّى دور الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن

زاغو المغراوي التلمساني (ت845هـ/ 1441م) في إقناع والده أحمد بن محمد ابن زكري (ت899هـ/ 1494م) بتوجيه ابنها نحو حقول العلم بدلا من الزجّ به في عالم الشغل وهو ليس بعد طفلا⁴³.

هذا، وقد حدّدت السلطة القضائية-الفقهية بعض الضوابط التي تكفل حقّ الزوجة وأبنائها في حال غياب الزوج أو الأب غيبة طويلة ولا يُعلم له مستقرّ أو لا يصلهم عنه خبر، بأنّ أباح القضاء للزوجة بيع الممتلكات التي خلفها زوجها من أراضي ودور وعقارات، واستغلال ثمنه في النفقة على نفسها وأبناء زوجها الغائب الصغار وذلك حرصا على حماية الأسرة من ضرر الفقر المالي والعوز الاقتصادي الذي يمكن أن يدفع بالزوجة إلى استخدام أطفالها الصغار كوسيلة إنتاج واستئجارهم وتشغيلهم لتحصيل مصدر دخل، تلافيا لانتقال حياة الفقر والفاقة⁴⁴.

كما أنّ السلطة السياسية وحتى تحدّ من ظاهرة تشغيل الأطفال، وتضبط مسارها وتقنّنه، وتحفظ حقّ الطفل وتكفل حياته وترعى صحته وأمنه وسلامته، سنّت قوانين تضبط ذلك، إذ ألزموها من شغلّ طفلا أن يحرّر عقد إجارة ويوثّقه حتى لا تضيع حقوقه المادية والمعنوية. وكانت وثيقة العقد تتضمن اسم الأب أو الوصي أو الحاضنة، واسم الصبي أو الصبية، والسنّ، ووقت الاستئجار، واسم المستأجر ونوعية العمل ومكانه، ومدّته وزمن بدايته ونهايته، وقيمة الأجرة وطريقة الدفع وكيفيةها، والشهود وتاريخ توثيق العقد⁴⁵. كما كلّفت المحتسبين بالسهر على رعاية حقّ الطفل وتحقيق أمنه الاجتماعي والنفسي، من خلال على سبيل المثال منع الرجال غير الموثوقين من استخدام الصبيان وتشغيلهم، وكذا منع غير المسلم من استخدامهم، وإن كان هناك من الفقهاء من أجاز به بشروط⁴⁶.

ونحسب أنّ السلوك التكافلي الذي تحلّى به أفراد المجتمع المغربي والأفعال الخيرية التي سجّلتها المظان المصدريّة التي اضطلع بها سلوك أهل البر ومن يقوم على سلطة البلاد من صدقات وأوقاف، ساهمت هي الأخرى في التخفيف من حدّة المعاناة الاجتماعية وحياة العوز التي عانت منها بعض الأسر باستثمار مساحة من عائداتها للعناية بطلبة العلم من الفقراء والأيتام والمعوزين، وكان ذلك وسيلة وقائية بطريقة غير مباشرة تحمي الأسرة من الزجّ بصغارها في سوق الشغل وعالم العمالة. وممّا يصدق على ذلك: أنّ الأمير الزياني أبا

حمو موسى الثاني كان كثير العناية بالشرائح المجتمعية الضعيفة والمعوزة يقدم لهم الجرايات في مختلف المناسبات ويحبس على الطلبة الفقراء والأيتام والأوقاف والصدقات، حيث وجدت بتلمسان أحباس خاصة بالذراري والزوجات وصدقات جارية مستمرة على اليتامى، وأحبس السلطان الزياني محمد بن موسى بن زيان عدة أحباس على مدرسة بتلمسان، وكذلك السلطان أحمد العاقل الذي أوقف أحباسا جلييلة على المدارس التلمسانية⁴⁷. وأن رجلا من بلد مليانة أوصى سنة 838هـ/1337م بأن يصرف ثلث ماله عند وفاته على المساكين، وأن رجلا من أهل بجاية أوصى رجلا بأن يتصدق بمبلغ مائة وخمسين دينار من الذهب كانت أمانة عنده على الفقراء والمساكين في بلده⁴⁸. وأن أبا عبد الرحمن النجار كان يكثر من الصدقات على الطلبة والمحتاجين، وكان ابن مرزوق يتصدق بكميات هائلة من القمح والنقود على الضعفاء كل جمعة⁴⁹. بالإضافة إلى صنيع رعاية الأيتام التي أولاها المغاربة عناية فائقة، والتي خففت هي الأخرى من أعباء الضغط الذي أنتجه واقع الخصائص المالي لدى بعض الأسر، وجنب ذلك السلوك التضامني البعض من الأيتام ولوج سوق الشغل، ويرتسم لنا هذا السلوك على ضوء النازلة التي أوردتها الونشريسي بشأن رجل أوصى بدفع ربع حانوته لصبيبة يتيمة بكر، والإنفاق عليها منه حتى تعقد قرانها، وآخر أوصى بمبلغ من المال ليتيم ليتعيش منه⁵⁰.

كحصوله للقول على محك ما تمّ بسطه، نشير بأنّ إجراءات الإحسان هذه وأفعال الصدقة التكافلية من أحباس وصدقات وملاجئ، كانت في الغالب أفعالا موسمية، لم ترق نتائجها لدرجة رفع الغبن بشكل تام عن شريحة الطفولة التي تعيش الخصائص المالي والفقير المعيشي وتخرط في سوق الشغل في مرحلة عمرية حساسة ببنية جسدية ومؤهلات نفسية لا تسمح لها بذلك، وإنما كانت هذه الإجراءات الظرفية تخفف من حجم الأعباء الملقاة على كاهلها، وتفرش بين أيديها مناخا اجتماعيا وقيميا يشعرها بحجم السلوك التكافلي الذي تصطبغ بها أخلاق المجتمع، وحجم الاهتمام الذي توليه النخب وأهل اليسار بالفئات الهشة في المجتمع، وبالانتفات الطيب من طرف السلطة لتقليل حجم الضرر المحيط بها.

5. خاتمة:

من خلال معالجتنا لمحتوى المحطات البحثية السابقة كان من بين أبرز الاستنتاجات التي استوقفتنا عندها ما يضطلع ببيانه العرض الموالي:

٥٥ مثلت نصوص المدونة الفقهية النوازلية ملاذا آمنا لتغطية العجز الذي نعانیه في إيجاد المادة الخبرية الكفيلة بريّ مسامات هذا العمل البحثي والبرهنة على طروحانا التي نسجناها في منته؛ ذلك أنّها كانت المستند الأساس لكشف جوانب من الواقع المعيشي المتأزم الذي اصطبغت به حياة بعض الأسر الزيرية في الفترة مدار الدرس، كما كانت المادة التراجمية للنخب أحد منارات الإضاءة التي يسترشد بنورها من يبحث في قضايا الطفل المغرب أوسطي في الحقبة الوسيطة، لاسيّما حين كان النور المنبعث من جسم التصنيف التاريخي خافتا لا ينسحب إشعاعه على كافة الزوايا المبحوث فيها في هذا المضمار البحثي.

٥٥ يسهم تشغيل الأطفال في حدوث اضطراب في حياة الطفل العلمية ومساره التكويني.

٥٥ مع أنّ سلوك تشغيل الأطفال في المغرب الأوسط الزيري متداخل المسببات ومتشعب العوامل الكامنة وراءه، إلّا أنّ الفقر وقهر الظروف المعيشية وغياب المعيل مثل أقوى الأسباب الدافعة للزج بالطفل في عالم الشغل في سن لا تسمح له بذلك ومرحلة تقتضي أن يصرف اهتمامه بشكل أساس إلى ما هو أهمّ؛ وهو الدراسة والتعلّم وتخصيص الوقت الكافي لذلك.

٥٥ على الرغم من أنّ النص المصدري لم يفصح بما فيه الكفاية عن طبيعة المخلفات التي تنعكس على مسار الطفل التنشؤي ومستقبله العلمي وحياته النفسية، فإنّ ذلك لا يعني خلوّ حياة بعض أطفال الأسرة الزيرية من مظاهر الاضطراب النفسي، والمعاناة الاجتماعية، والضرر الجسمي، والتفريط في التحصيل العلمي.

٥٥ يؤدي المستوى الثقافي والمعيشي لأرباب الأسر دورا محوريا في تحديد مستقبل الأبناء، ومستوى الحرص على حسن الرعاية الاجتماعية ومسؤولية التنشئة المثلى.

٥٥ أسهمت النخب المغرب أوسطية على اختلافها وبكل ما أوتيت من دراية ووسيلة بشكل فاعل في تنوير العقل الأسري وتحسيس العناصر المجتمعية بأهمية استثمار فترة الطفولة في طلب العلم والتفرغ له، والتنبية على المخاطر التي تتجم عن استغلال الطفل في عالم الشغل على حساب دراسته وصحته، كما لعب السلوك التكافلي الذي تحلّت به عناصر المجتمع المغرب أوسطي تجاه الفئات الاجتماعية الهشة دورا محوريا في التخفيف من معاناة الطفل الفقير واليتيم الاجتماعية والنفسية، وتذليل الصعاب أمامه ليتفرغ للعلم والدراسة ولا ينشغل بما هو يلهيه عن ذلك ويصرف فيه جهده وهو فوق طاقته.

٥٦ على الرغم من أنّ تشغيل الأطفال في المغرب الأوسط الزياني وإشراك الوالدين لأبنائهم في أنشطتهم الاقتصادية المعاشية انطوى على بعض الجوانب الايجابية كالتخفيف من مشاكل الفقر والحاجة، فإنّ الانعكاسات السلبية على شخصية الطفل ومسار تنشئته السوسيو تعليمية تعدّ هي الغالبة وذات السلطان الأكبر في مساحة التأثيرات على حياته فيما نعتقد.

6. الهوامش:

¹ - الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إخراج، محمد حجي وآخرون، ج12، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1401هـ/1981م، ص319، تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، منشورات عكاظ، المغرب، 2010، ص390.

² - أو مسألة من كان له ولد في كفالة الجدة "وأشهد الجد للأُم أنه متى غاب فقد أسقط نفقته". الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص319.

³ - المصدر نفسه، ج5، ص289.

⁴ - ابن مرزوق محمد، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1429هـ/2008، ص199.

⁵ - ابن قنفذ القسنطيني، أنسر الفقير وعز الحقيير، صححه، محمد الفاسي وأدلف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965، ص30.

⁶ - ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبع في المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، 1336هـ/1908م، ص45، التتبكتي أحمد: 1398هـ/1989م: 130.

⁷ - الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص139.

⁸ - تيتاو، المرجع السابق، ص320.

⁹ - الحسن، الوزان: وصف إفريقيا، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص08.

¹⁰ - ابن ابن أبي زرع، روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، طبع بمطبعة صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص386، الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ص80، فيلالى عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية ثقافية)، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص255.

¹¹ - تيتاو، المرجع السابق، ص320.

¹² - الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص 240، 114.

¹³ - المصدر نفسه، ج4، ص 16، 19، 21، 38.

¹⁴ - تيتاو، المرجع السابق، ص230.

¹⁵ - فيلالى، المرجع السابق، ص 254.

¹⁶ - المرجع نفسه، ص 254.

¹⁷ - تيتاو، المرجع السابق، ص230، بوتشيش إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 113.

¹⁸ - ابن مريم، المصدر السابق، ص38، الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، الجزائر، مطبعة بيبير فونطانة، 1324هـ / 1906م، ص38.

¹⁹ - المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح، مختار حساني، ج3، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص10.

²⁰ - الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص09.

²¹ - المصدر نفسه، ج4، ص12.

²² - المصدر نفسه، ج4، ص12.

²³ - المصدر نفسه، ج3، ص20.

²⁴ - المصدر نفسه، ج3، ص24.

²⁵- شرقي نوار، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين 524-667هـ/1126-1268م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1429هـ/2008م، ص110، النبراوي نجلاء سامي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية للطفل بالأندلس (ق 4-10هـ / 10-16م)، شبكة الألوكة، ص24. العربي لخضر، الحرف وتنظيماتها في مدينة تلمسان الزيانية، مجلة الناصرية، العدد الرابع، جامعة مصطفى إسطنبولي معسكر، الجزائر، 2013، ص314، فيلالي، المرجع السابق، ص124، شقدان بسام كامل، تلمسان في العهد الزياني 633-962هـ / 1235-1555م، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة نابس، فلسطين، 2002م، ص187، العربي، المرجع السابق، ص312.

²⁶- تيتاو، المرجع السابق، ص403.

²⁷- بوتشيش، المرجع السابق، ص103.

²⁸- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص188، العربي، المرجع السابق، ص333.

²⁹- ولعلنا لم نقع في فخ المبالغة، إن قلنا أن لذلك الجهد الكبير تأثير حتى على جمالية الطفل ومنظره أو مظهره؛ حيث تتأثر بشرته من شدة الحرّ ومن النشاط اليدوي الشاق، وتبدو على جسمه مظاهر الإرهاق والمشقة. بن عيسى رابح ورشيد زوزو، عمالة الأطفال في الجزائر - الأسباب الانعكاسات والحلول، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 21، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2016، ص50.

³⁰- بن نوح مريم وبكراوي محمد المهدي، عمالة الأطفال واستغلالهم للتكسب بين ما هو كائن وما هو مأمول، المجلة الإفريقية للدراسات القانونية والسياسية، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر، 2019، ص188. ومرحلة الطفولة: هي المرحلة الأساسية التي تتبنى عليها مراحل حياة الكائن البشري والحساسة في مسارها، فخلالها تتشكل ملامح شخصيته الأساسية والمستقبلية، والأرضية الخصبة لغرس المبادئ والمعتقدات السليمة، والفضاء الرحب لاكتساب الخبرات والمهارات. ومن بين خصائص هذه المرحلة: الاعتمادية؛ فالطفل يعتمد على غيره أكثر ما يعتمد على نفسه مع تدرّجه نحو الاستقلالية. المرونة؛ أي القابلية لتشكيل السلوك حسب توجيه المربي. التلقائية؛ وهي عفوية التعبير. عريق لطيفة ونبار ربيحة، عمالة الأطفال كأحد آثار العنف الأسري (دراسة ميدانية على عينة أطفال بمنطقة بسكرة)، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، المجلد الأول، العدد 4، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2016، ص89.

³¹- النبراوي، المرجع السابق، ص05.

³²- بوتشيش، المرجع السابق، ص59.

³³- المرجع نفسه، ص60.

- ³⁴ - ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج1، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421هـ/2000م، ص740.
- ³⁵ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص740، عشي علي، المؤسسات الدينية بالمغرب الأوسط خلال العهد الموحيدي (6-7/12-13م) بين التعليم والتربية، مجلة الحوار المتوسطي، مج 9، العدد 3، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2018، ص244.
- ³⁶ - عشي علي، المرجع السابق، ص229.
- ³⁷ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص743.
- ³⁸ - سعيدان أسماء، الحماية المقررة لتشغيل الأطفال في القانون الجزائري، مجلة حوليات جامعة الجزائر 1، العدد 32، ج2، الجزائر، 2018، ص12.
- ³⁹ - ابن مريم، المصدر السابق، ص38، الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص44.
- ⁴⁰ - بلعباس حنان وجمعة أولاد حميدة، قراءة في الأسباب والآثار النفسية لعمالة الأطفال، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، المجلد7، العدد6، المركز الجامعي تمنغست، الجزائر، 2018، ص498.
- ⁴¹ - بن نوح وبكراوي، المرجع السابق، ص193.
- ⁴² - شريخي، المرجع السابق، ص33.
- ⁴³ - ابن مريم محمد، 1336هـ/1908م: 38، الحفناوي المرجع السابق، ج1، ص44.
- ⁴⁴ - الونشريسي، المصدر السابق، ج5، ص100. راجع كذلك: أبو مصطفى كمال، مرجع سابق، ص20.
- ⁴⁵ - النبراوي، المرجع السابق، ص24-26، العربي، المرجع السابق، ص332.
- ⁴⁶ - النبراوي المرجع السابق، ص26.
- ⁴⁷ - الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص237-248، شقدان، المرجع السابق، ص171.
- ⁴⁸ - الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص370، أبو مصطفى كمال، المرجع السابق، ص24-25.
- ⁴⁹ - فيلال، المرجع السابق، ص255.
- ⁵⁰ - الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص370.

7. قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. ابن أبي زرع، روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، طبع بمطبعة صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
2. ابن الزيات يوسف، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح، أحمد التوفيق، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 1997.
3. ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج7، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1421هـ/ 2000م.
4. ابن قنفذ أحمد، أنس الفقير وعز الحقيير، صححه، محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965.
5. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح، دور وتياكرا فاولسكي، ط1، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، لبنان، 1407هـ/ 1986م.
6. ابن مرزوق محمد، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1429هـ/ 2008.
7. التلمساني ابن مريم محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبع في المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي، الجزائر، 1336هـ/ 1908م.
8. التبتكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، ج2، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1398هـ/ 1989م.
9. المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح، مختار حساني، ج3، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009.
10. الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، تر، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

11. الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إخراج، محمد حجي وآخرون، ج12، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1981م.

ثانيا: المراجع:

12. أبو مصطفى كمال، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 1996.

13. الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، الجزائر، مطبعة بيبير فونطانة، 1324هـ/1906م.

14. الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954.

15. النبراوي نجلاء سامي، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية للطفل بالأندلس (ق 4-10هـ/ 10-16م)، شبكة الألوكة.

16. الناجي لمين، رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط الملكية وآثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1437هـ / 2016م.

17. السمالي العباس، الإعلام بمن حل مراكز وأغمات من الإعلام، ج2، راجعه، عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1414هـ/ 1993م.

18. الشربيني زكريا ويسرية صادق، تنشئة الطفل وسبل الوالدين في معاملته ومواجهة مشكلاته، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1421هـ/ 2000م.

19. بريكة مسعود، النخبة والسلطة في بجاية الحفصية، رسالة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1429-1430هـ/ 2008-2009م.

20. بلعباس حنان وجمعة أولاد حميودة، قراءة في الأسباب والآثار النفسية لعمالة الأطفال، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، المجلد 7، العدد 6، المركز الجامعي تمنغست، الجزائر، 2018.
21. بن نوح مريم وبكراوي محمد المهدي، عمالة الأطفال واستغلالهم للتكسب بين ما هو كائن وما هو مأمول، المجلة الإفريقية للدراسات القانونية والسياسية، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر، 2019.
22. بن عيسى رابح ورشيد زوزو، عمالة الأطفال في الجزائر الأسباب الانعكاسات والحلول، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، العدد 21، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2016.
23. بوتشيش ابراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993.
24. بوتشيش ابراهيم القادري، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2000.
25. تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، منشورات عكاظ، المغرب، 2010.
26. فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية ثقافية)، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.
27. سعيدان أسماء، الحماية المقررة لتشغيل الأطفال في القانون الجزائري، مجلة حوليات جامعة الجزائر 1، العدد 32، ج2، الجزائر، 2018.
28. شقدان بسام كامل، تلمسان في العهد الزياني 633-962هـ / 1235-1555م، أطروحة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، جامعة نابس، فلسطين، 2002م.
29. شرقي نواره، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين 524-667هـ / 1126-1268م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1429هـ / 2008م.

30. شريخي نبيل، جوانب من الحياة الاجتماعية للمعلمين والطلبة في المغرب الأوسط من خلال النوازل الفقهية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14 و 15م)، مجلة قضايا تاريخية، العدد6، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2017م.
31. عشي علي، المؤسسات الدينية بالمغرب الأوسط خلال العهد الموحي (6-7/12-13م) بين التعليم والتربية، مجلة الحوار المتوسطي، مج 9، العدد 3، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2018.
32. عريق لطيفة ونبار ربيعة، عمالة الأطفال كأحد آثار العنف الأسري (دراسة ميدانية على عينة أطفال بمنطقة بسكرة)، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، المجلد الأول، العدد 4، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2016.
33. لامعة زكري، الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في تحقيق الصلات الثقافية خلال القرنين 7-9هـ / 13-15م، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 1430-1431هـ / 2009-2010م.
34. لخضر العربي، الحرف وتنظيماتها في مدينة تلمسان الزيانية، مجلة الناصرية، العدد الرابع، جامعة مصطفى إسطنبولي معسكر، الجزائر، 2013.
35. محمد عماد الدين إسماعيل، الأطفال مرآة المجتمع (النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986.